



من المتوقع أن يشهد تمثيل المعارضة السورية تشكيلًا جديداً يكرّسه مؤتمر تستضيفه الرياض، بتكليف من لقاء فيينا لـ «مجموعة الدعم الدولي لسوريا». ولعل اللغط والجدل والصراعات والتنافسات والتدخلات، فضلاً عن الأخطاء، التي رافقت المحاولات السابقة لبلورة كيان تمثيلي للمعارضة، جعلت الجانب السعودي يتتردد في قبول هذه المهمة.

إذ إنه لا يملك تشكيلة مسبقة أو جاهزة يريد تسويقها لكن لديه رؤية مبدئية لمن هم معارضون أو أشباه معارضين، كما أنه لا يريد الاصطدام مع الآخرين أو الدخول في مساومات معهم في شأن خياراتهم وأفضلياتهم، إلا أن الجانبين الأميركي والروسي أصرّاً معاً على أن تتولى السعودية هذه الخطوة، ما يرشحها لأن تكون لاحقاً مرجعية لوفد المعارضة إلى المفاوضات.

ما شجّع الرياض أيضاً أن بيان فيينا (14 تشرين الثاني - نوفمبر) انطوى على مجمل العناصر التي يمكن أن تسهل المهمة.

فالمجموعة الدولية عبرت بوضوح عن استرشادها ببيان «جييف1» والقرار الدولي الرقم 2118 الذي يتضمن نص ذلك البيان ويضيف عليه مزيداً من الشرعية. كما أن المجموعة اتفقت على ضرورة دعوة ممثلي النظام والمعارضة إلى مفاوضات بإشراف الأمم المتحدة «بأسرع وقت ممكن» وحددت لها موعداً مبدئياً هو 1/1/2016.

صحيح أن بيان فيينا الأخير استوقف كثيرين ببعض الصياغات التي تبدو كأنها تصرّف بنص «جييف1»، كـ«إقامة هيئة حاكمة ذات صدقية وشاملة الجميع وغير طائفية» وليس «هيئة حكم انتقالي بصلاحيات كاملة»، إلا أن توجه الإرادة الدولية إلى مفاوضات بين وفين، أحدهما النظام، مثل للمرة الأولى اعترافاً دولياً كاملاً (روسياً - إيرانياً أيضاً) بالمعارضة الحقيقة المدعومة الآن إلى الرياض لتشكيل وفدها، ما يرشّحه لأن يكون القيادة الأولى للمعارضة منذ بدء الصراع السياسي

والعسكري في سوريا.

هذه القيادة، التي تكون قد تأخرت أربعة أعوام ونيف، ويفترض أن تولد أخيراً في العاصمة السعودية، تؤكد ما كان معروفاً، وهو أن المعارضة - الخارجة من مجتمع أمعن نظام الأسد الأب والابن في تهشيمه معمونياً وتجريفه سياسياً وإيذائه أمنياً وحرمانه اقتصادياً - كانت دائماً في حاجة إلى من يساعدها في الانتظام. لا شك في أن أطر «المجلس الوطني» و«الائتلاف» و«الجيش السوري الحر» و«التنسيقيات» المحلية كانت وليدة الضرورة، وبالنظر إلى انعدام التجارب السابقة لديها فقد كانت حالاً متقدمة، وحين توافر لها الدعم اتسم معظمها بالحيوية، وتميز جانبها العسكري بالجدية والفاعلية حتى أن «الجيش الحر» انبعث أخيراً كرقم صعب رغم كل ما عاناه من تجازبات خارجية وما فرض عليه من قيود أميركية وما يتعرض له من ضغوط روسية حالياً.

كان لا بدّ من أن تأتي هذه اللحظة، إذًا، لحظة التفاوض، رغم صعوبتها، بل رغم ضالتها بالمقارنة بضخامة التضحيات، ورغم كم هائل من الظروف المحلية والأقليمية والدولية التي توالت وتراكمت وتضافرت كما لو أن العالم كله، والقدر، حكماً بأن شعب سوريا غير جدير بالإنصاف، أو كأنه لم يكُنْ يُـتَـلـى بمثل هذا النظام.

ليس في التفاوض انتصار لأي من الطرفين، هذه هي القاعدة في النزاعات الأهلية. لعل النصر في أن تبقى سوريا كلها لجميع السوريين.

كان نظام بشار الأسد وحليفه الإيراني قد انهزما ولذا استنجدا بروسيا لتعيينهما على الاحتفاظ بـ«سوريا المفيدة» - «غنيمتهم» المفترضة. وكانت المعارضة قد بذلت/ وببرهنـت ما تستطيع، رغم أصدقاء - أعداء أهملوها وشكـكـوا فيها وتلاعـبـوا وعيـثـوا، ورغم ضـخـ «داعش» في مناطـقـها، ورغم تفـريحـ فصـائـلـ عمـيلـةـ للنـظـامـ أو مـهوـوسـةـ بالـدـينـ وـسـيـلـةـ لـلـسيـطـرـةـ فـصـارـتـ عـبـثـاـ عـلـىـ الثـورـةـ لـأـرـادـاـ لـهـاـ،ـ حتـىـ لمـ يـعـدـ هـنـاكـ فـارـقـ بـيـنـ النـظـامـ وـ«ـدـاعـشـ»ـ وـبعـضـ الـفـصـائـلـ إـذـ تـتـغـيـّـرـ جـمـيـعـهاـ مـنـ اـسـتـمرـارـ الصـرـاعـ وـلـاـ تـرـىـ مـصـلـحةـ فـيـ إـنـهـاءـهـ.

إذا فـدرـ لـلـتـفـاوـضـ أـنـ يـبـدـأـ وـيـسـتـمـرـ،ـ فـلـنـ يـكـونـ سـوـىـ بـدـايـةـ بـطـيـئـةـ لـلـخـرـوجـ إـلـىـ وـضـعـ آـخـرـ،ـ غـيرـ مـسـبـوقـ عـلـىـ أيـ حـالـ،ـ فـمـنـذـ خـمـسـيـنـ عـامـاـ لـمـ تـشـهـدـ سـوـرـيـاـ نـدـيـةـ بـيـنـ نـظـامـ وـمـعـارـضـةـ.

كانت المعادلة الميدانية التي ارتسـمتـ عـشـيـةـ التـدـخـلـ الـرـوـسـيـ تـفـيدـ بـأـنـ النـظـامـ يـخـسـرـ لـكـنـ الـولـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ وـرـوـسـيـاـ وـإـيـرانـ لـاـ تـرـيدـ اـنـهـيـارـ،ـ وـاـسـرـائـيلـ الـتـيـ اـسـتـشـعـرـتـ نـهـاـيـةـ طـالـبـ رـئـيـسـ وـزـرـائـهـ الرـئـيـسـ الـامـيرـكـيـ بـالـحـفـاظـ عـلـىـ دـورـ لـلـأـسـدـ.

أـيـ أـنـ كـلـ هـذـهـ الـقـوـىـ اـسـتـعـدـتـ لـلـجـمـ الـمـعـارـضـةـ وـمـنـعـهـاـ مـنـ مـتـابـعـةـ الـزـحـفـ نـحـوـ دـمـشـقـ،ـ وـبـمـجـيـءـ الـرـوـسـ اـخـتـلـ مـيزـانـ الـقـوىـ لـمـصـلـحةـ النـظـامـ وـإـنـ لـمـ يـمـكـنـهـ مـنـ اـسـتـعـادـةـ قـوـتهـ الـمـفـقـودـةـ وـالـمـنـهـكـةـ.ـ لـذـكـ لـمـ تـسـتـبـعـ مـوـسـكـوـ إـمـكـانـ «ـالـحلـ السـيـاسـيـ»ـ لـأـنـ ضـربـاتـهاـ الـجـوـيـةـ وـتـرـسـانتـهاـ الـصـارـوـخـيـةـ لـنـ تـفـعـلـ أـكـثـرـ مـنـ مـضـاعـفـةـ جـرـائمـ غـرـقـ النـظـامـ وـإـيـرانـيـوـنـ فـيـ دـمـائـهـ حـتـىـ رـؤـوسـهـمـ،ـ أـمـاـ مـحـارـبـتهاـ «ـدـاعـشـ»ـ كـهـدـفـ مـعـلـنـ فـلـاـ يـزالـ مـجـرـدـ شـعـارـ دـعـائـيـ.

يـحاـوـلـ الـأـسـدـ وـإـيـرانـيـوـنـ اـجـتـذـابـ الـرـوـسـ إـلـىـ تـأـجـيلـ أـيـ خـطـوـةـ سـيـاسـيـةـ،ـ مـتـذـرـعـينـ بـكـذـبـهـمـ الثـابـتـةـ عـنـ مـحـارـبـةـ الـإـرـهـابـ أـوـلـاـ.ـ إـذـ لـاـ مـصـلـحةـ لـهـمـ فـيـ أـيـ كـلـامـ عـنـ «ـعـمـلـيـةـ سـيـاسـيـةـ»ـ يـمـكـنـ أـنـ يـحـرـفـ الدـبـ الـرـوـسـيـ عـنـ اـسـتـراتـيـجـيـةـ سـحـقـ الـمـعـارـضـةـ،ـ كـمـ رـسـمـوهـاـ لـهـ.

لـاـ شـكـ فـيـ أـنـ إـسـقـاطـ الـ«ـسـوـخـوـيـ 24ـ»ـ وـتـفـجـرـ العـدـاءـ الـرـوـسـيـ -ـ التـرـكـيـ جـاءـ فـيـ توـقـيـتـ يـخـدـمـ الـوـظـيـفـةـ الـتـيـ يـتـمـنـاـهـ الـأـسـدـ وـإـيـرانـيـوـنـ لـلـدـورـ الـرـوـسـيـ،ـ بـدـلـيلـ الـقـصـفـ الـهـسـتـيـرـيـ الـذـيـ أـقـدـمـ عـلـيـهـ فـيـ كـلـ الـأـنـحـاءـ،ـ باـسـتـثـنـاءـ مـنـاطـقـ «ـدـاعـشـ»ـ،ـ غـيرـ آـبـهـ بـتـهـجـيـرـ أـقـلـيـةـ كـالـرـكـمانـ أـوـ مـهـتـمـ بـزـيـادـةـ الـتـعـقـيـدـاتـ الـمـيـدـانـيـةـ لـلـمـسـعـيـ السـيـاسـيـ.

غير أن هذه التطورات يجب ألا تغيب ضرورة التهيّء للتفاوض، كونها تضفي عليه مزيداً من المبررات، وأهمها أن السعي الأسدّي – الإيراني إلى إرجاء أو إحباط أي تفاوض بات حافزاً لقبوله والتحضير له بكل ما يتطلبه من حنكة وجدية. جاء تكليف السعودية العمل على وفد موحد للمعارضة بمثابة خط النهاية للسباقات التي جرت منذ بداية هذه السنة بين عدد من الأطراف بغية سلب المعارضة ورقة تمثيلها، عبر تنظيم مؤتمرات وندوات من موسكو إلى استانة (عاصمة كازخستان) إلى القاهرة، وصولاً إلى محاولة دمج مخرجاتها في صيغة يعول على سذاجة ستافان دي ميستورا لاعتمادها في وفد معارض معروف مسبقاً أن النظام لعب دوراً محورياً في تشكيله سواء من المعارضين المزعومين العاملين منذ زمن في خدمته أو من مواليه له معروفين جداً أو أخيراً من أشخاص استزبنتهم طهران ومولتّهم ليقوموا بأنشطة تروّج لكونهم «معارضين للنظام».

استضافت موسكو لقاعين لتكتشف أنها تدور/ أو تُدار في مشروع زائف وملقّ. أما لقاء استانة فلا قيمة له، وأما لقاء القاهرة فقد يفيد في تسهيل مجيء «معارضة الداخل»، تحديداً «هيئة التنسيق الوطنية لقوى التغيير الديمقراطي»، إلى الرياض وتحصين انخراطها في نسيج كيان موحد للمعارضة يضمّ «الائتلاف» والفصائل العسكرية و «هيئة التنسيق» وعدداً من المستقلين.

من شأن صيغة كهذه أن تزيل اللبس وتتفادى اخترق وفد المعارضة أو «تفخيه» بأعضاء يمثلون النظام، وما دام لهذا الأخير وفده فبإمكانه أن يضم من يشاء من «معارضين» يستأنس بآرائهم. ويبقى الأهم أن يكون وفد المعارضة موحداً في رؤيته لـ «حل سياسي» يحقق انتقالاً سياسياً عبر مرحلة انتقالية تقودها هيئة حكم انتقالي كاملة الصالحيات، وليس اندماجاً في «حكومة النظام» ونسجه، خصوصاً أن أيّاً من النصوص المرجعية (القرار 2118، بيان جنيف1، خطة فيينا) لا يقترح اندماجاً كهذا.

صحيح أن روسيا وإيران تفضّلان استمرار النظام الحالي و«بقاء الأسد» كضمان لمصالحهما في سوريا، بل تشاركانه استخدام إرهاب «داعش» نهجاً ابتزازيًّا لدول «لقاء فيينا» تحقيقاً لهذا الهدف، إلا أن منطق إنهاء الصراع الذي بات يفرض نفسه على مداولات المجموعة الدولية لا ينفك يكشف الأوهام: ببقاء الأسد، «حتى لو وافقت عليه لا يمكن أن ينجح» (وهذه عبارة دقيقة لباراك أوباما)، فهو لا يساعد في القضاء على «داعش»، والأهم أنه وصفة مسبقة لإفساد أي حل سياسي وخربيه.